مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 1 / العــدد: 03 (2013)، ص 51- 68

ملامح الدلالة السياقية في التراث

الدكتور محمد الأمين خويلد
جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر.

سياق الكلام هو أسلوبه الذي يجري عليه، والكيفية التي يرد بها، فلا يكفي أن ندرس الكلمة بمنأى عن المحيط الذي ترد فيه، ولذلك اهتمت الدراسات اللغوية الحديثة بالتركيز على السياقات المختلفة التي ترد فيها الكلمة، وعلى هذا الأساس، فإن دراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا للسياقات، والمواقف التي ترد فيها، ولذلك فإن معنى الكلمة يتغير تبعا لتعدد السياقات التي تقع فيها[1]. إذا فالدلالة السياقية توضح ما يكون قد طرأ على الكلمة من تغير دلالي، بحسب القوانين التي ترصد حركة الألفاظ والدلالات.

وقد أثارت فكرة التقابل بين الدال والمدلول (اللفظ والمعنى) عند علماء اللغة الأوائل نشاطا لغويا كبيرا لرصد العديد من الظواهر اللغوية التي تتصل بالبحث الدلالي، ومثال ذلك حديثهم عن المعاني المختلفة التي تتوارد على الكلمة الواحدة، فيما يسمى بـ (المشترك اللفظي)، وكذا حديثهم عن دلالة اللفظ الواحد الدال على المعنيين المتضادين –وهو حالة خاصة في المشترك اللفظي- ودلالة اللفظين المختلفين على المعنى الواحد فيما يسمى بالمترادف، وبينوا أن الأصل دلالة كل لفظ على معنى خاص.

يقول سيبويه في باب (اللفظ للمعاني): "أعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين...، فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب، واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من المَوجِدة، ووجدت إذا أردت وِجدان الضالة وأشباه هذا كثير"[2]

و تحليلهم لبعض هذه الظواهر، يكشف عن إدراكهم العميق لأهمية السياق في تحديد المعاني، فمن المعلوم أن التمييز بين المعاني التي تشترك ألفاظها، إنما يتحدد في

السياق الذي ترد فيه كل كلمة من المشترك اللفظي، ولقد لقيت ظاهرة المشترك اللفظي عناية فائقة من قبل الفلاسفة والمفكرين، وعلماء اللغة، فقد صنفت مؤلفات عديدة تجمع فيما يشبه المعجم ألفاظ المشترك اللفظي، تفاوتت اتساعا، واختصارا، نذكر منها رسالة للأصمعي (215هـ) (ما اتفق لفظه واختلف معناه)، وكتابا لأبي العميثل (240هـ)، وكتابا صغيرا للمبرد (285هـ) حدده (بالقرآن المجيد) [3].

ويعد كتاب (المنجد في اللغة) لأبي الحسن علي بن الحسن الهنائي المشهور بـ (كراع)، من أهم المؤلفات اللغوية في حقل المشترك اللفظي،[4] وأساس تصنيف المشترك اللفظي هو الدلالة، لأن اللفظ الواحد يدل على معنى أو اثنين أو اكثر. ومن البديهي أن اللفظ في أول وضعه كان يدل على معنى واحد، ثم تولد من هذا المعنى الواحد عدة معان، وهذا التولد يدخل فيما يسمى بـ: تطور المعنى، فمن ذلك مثلا: المفردات التي كانت عامة المدلول، ثم شاع استعمالها في الإسلام للدلالة على معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر: كألفاظ الصلاة، والصوم، والحج....

ولقد أدى تداخل اللغات (اللهجات العربية) –أيضا– دورا خطيرا في ظهور الألفاظ المشتركة، وكان مادة صالحة للتورية والتجنيس عند المشغوفين بالمحسنات اللفظية[5]، وهو مجال رحب –أيضا– للباحثين عن الألغاز في الكلام وإظهار المقدرة التعبيرية من خلال توجيه اللفظ الواحد للدلالة على معان شتى.

إن السياق هو المحور الذي يعتمد عليه في توجيه دلالة الكلمات المشتركة إلى المعنى الأخص، ويكون ذلك بالنظر إلى علاقة الكلمة -التي وقع فيها المشترك اللفظي –مع ما قبلها وما بعدها من كلمات الجملة، وذلك لأن الكلمات المشتركة تعطي إشعاعات عديدة، ولا يمكن تحديد المعنى إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، حيث تتم ملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها للكشف عن المعنى المقصود.

والأمثلة التي توضح ذلك عديدة في اللغة، فقد يقع الفعل الواحد، دالا على عدة معان، ويرتبط كل معنى بالسياق الذي ورد فيه الفعل "من ذلك قولهم: قضى بمعنى (حتم) كقوله تعالى {فَلَمَّا قَضَينَا عَلَيهِ المَوتَ} سورة سبأ الآية : 14، وقضى بمعنى (أمر)، كقوله تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعبُدُوا إِلاّ إِيَّاهُ} سورة الإسراء الآية : 23 ، أي

أمر، ويكون قضى بمعنى (صنع)، كقوله تعالى {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ} سورة طه الآية : 72، أي فاصنع ما أنت صانع، ويكون قضى بمعنى (حكم)، كما يقال للحاكم قاض، وقضى بمعنى (أعلم)، كقوله تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسرَائِيلَ فِي الكِتَابِ} سورة الإسراء الآية : 4 أي أعلمناهم، ويقال للميت قضى إذا فرغ من الحياة....

وقد يقع الاسم الواحد –أيضا– دالا على الأشياء المختلفة "من ذلك عين الشمس، وعين الماء، ويقال لكل واحد منهما العين، والعين النقد من الدراهم...والعين السحابة من قبل القبلة، والعين مطر أيام لا يقلع، والعين الجاسوس والرقيب...وعين الشيء نفسه، وعين الشيء خياره، والعين الباصرة، والعين مصدر عانه عينا. وكذلك لفظة (الصلاة) قد تكون دالة على الفريضة المعروفة، أو الدعاء أو الدين.. [6]، وأمثال هذه الألفاظ كثيرة في اللغة ومن الأكيد أن "السياق هو الذي يعين أحد المعاني المشتركة للفظ...، فيخلع على اللفظ المعنى المناسب...، وإن في اشتمال العربية على قدر لا يستهان به من الألفاظ التي تنوع استعمالها بتنوع السياق لدليل على سعتها في التعبير"[7].

وتتضح قيمة السياق –أيضا– من خلال ظاهرة التضاد في اللغة، وهو نوع خاص من أنواع الاشتراك اللفظي، حيث يطلق اللفظ على المعنى وضده[8]، ومثال ذلك "الوراء يكون خلف وقدام، والصريم الليل، وهو أيضا الصبح، لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه، والجلل اليسير، و الجلل العظيم، والجون الأسود وهو أيضا الأبيض"[9]، فالسياق -ولا ريب– هو الذي يحدد المعنى و"يعين الغرض من اللفظ، ويشعر بنوع العلاقة فيه سلبية كانت أم إيجابية...، فكلام العرب يصحح بعضه بعضا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب فيه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه"[10]

ولقد أدرك علماء العربية قديما أهمية معرفة السياقات الحالية في فهم المعاني، والإحاطة بها، فقد نبه ابن جني إلى أهمية معرفة سياق الحال، في تحديد المعاني، فلا يكتفى بتحديد المعنى في العديد من الأحوال بالسماع فقط، بل ينبغي أن يحيط السامع بالظروف التي تحيط بالكلام، فيجمع بين السماع والظروف التي تنوب عن المشاهدة والحضور[11]، ومثال ذلك "قولهم (رفع عقيرته)، إذا رفع صوته...، وإنما هو أن رجلا قطعت إحدى رجليه، فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال

الناس: رفع عقيرته، أي رجله المعقورة...، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور، ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة، لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه غير متهم الرأي والنحيزة والعقل، فهذا حديث ما غاب عنا، فلم ينقل إلينا، وكأنه حاضر معنا مناج لنا، ومثل هذه العبارات "لو نقلت إلينا لم نفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها"[12].

ومن ذلك تأكيدهم على أهمية العلم بسبب النزول في القرآن، فقد "قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[13]، ورأوا أن اختلاف الأساليب القرآنية الناتجة عن التقديم والتأخير من مقتضيات السياق، فالسياق يقتضي في موضع ما تقديم اللفظ، وفي موضع آخر تأخيره.

ومثال ذلك قوله تعالى {وَادخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّة} سورة البقرة الآية : 58، وقوله {وَقُولُوا حِطَّة وَادخُلُوا البَابَ سُجَّداً} سورة الأعراف الآية161، فقصد البداءة بالشيء، أو الختم به دالة على الاعتناء بشأنه، أو الإشارة إلى معنى خاص، ويتضح ذلك في قوله تعالى: {وَسَخَّرنَا مَعَ دَاوُودَ الجِبَالَ يُسَبِّحنَ وَالطَّيرَ} سورة الأنبياء الآية : 79، فقدم الجبال على الطير لأن تسخيرها له، وتسبيحها أعجب، وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز لأنها جامد والطير حيوان[14].

ومن مظاهر إدراكهم الدلالة السياقية توجيههم للفظ القرآني الواحد للدلالة على معان عدة، بحسب اختلاف الآيات، وكيفية ورودها فيها، فلفظة (الهدى) مثلا، تأتي بمعنى الثبات في مثل قوله تعالى {أهْدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} سورة الفاتحة الآية6، وبمعنى البيان في قوله {أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِم} سورة البقرة الآية : 5، وبمعنى الدين في قوله {إِنَّ الهُدَى هُدَى الله} سورة آل عمران الآية : 73، وبمعنى الإيمان في قوله {وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوا هُدىً} سورة مريم الآية : 76، وبمعنى الدعاء في قوله {وَلِكُلِّ قَومٍ هَاد} سورة الرعد الآية7، و{جَعَلنَاهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا} سورة الأنبياء الآية : 73،

ولفظ السوء يأتي على أوجه عدة منها (الشدة) في {يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذَاب} سورة البقرة الآية : 49 ، و(العقر) في {لاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء} سورة الأعراف الآية : 73، أما في قوله تعالى: {مَاجَزَاءُ مَن ارَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً} سورة يوسف الآية25، فإن لفظة السوء دالة على الزنى[15]، وكل هذا يتضح من خلال السياق.

وكذلك لفظة الخير، فإنها ترد بمعان عديدة، فهي دالة على المال في قوله تعالى {وَإِنَّهُ لِحُبّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ} سورة العاديات الآية8، أي "إنه لشديد الحب للمال، حريص على جمعه، وهو لحب عبادة الله، وشكر نعمه ضعيف، متقاعس. أما في قوله تعالى على لسان نبي الله سليمان {إِنّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكرِ رَبّي} سورة ص الآية 32، فهي دالة على الخيل، والمعنى أني "آثرت حب الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله، وهي بمعنى العمل الصالح في قوله {وَمَا تُقَدّمُوا لأَنفُسِكُم مِن خَيرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيراً وَأَعظَم أَجْرا} سورة المزمل الآية : 20، بمعنى أن "أي شيء تفعلوه أيها الناس من وجوه البر والخير تلقوا أجره وثوابه عند الله...ويوم القيامة خيرا لكم مما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال، فإن الدنيا فانية والآخرة باقية، وما عند الله خير للأبرار، وهي ضد الشر في قوله {فَمَن يَعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه} سورة الزلزلة الآية7، أي "فمن يفعل من الخير زنة ذرة من التراب، يجده في صحيفته يوم القيامة، ويلقى جزاءه عليه"[16]، ولا شك في أن توجيه معاني اللفظ الواحد في كل آية يتحدد بالنظر إلى السياق الذي وردت فيه.

ولقد نبه العلماء إلى ظاهرة الوقف، وما لها من أثر في تغيير المعنى، وحددوا له أنواعا منها: التام والكافي، والحسن، والقبيح...، و"مرجع كل هذه الأنواع النظر في معاني الآيات وتفادي تجزء المعنى الواحد، وتحاشي البدء بما يفسد المعنى، ويقطع من أوصال الآية الواحدة"[17]، ويكفي في هذا المقام أن نمثل بقوله تعالى {فَوَيلٌ للمُصَلّينَ الذِينَ هُم عَن صَلاَتِهِم سَاهُونَ} سورة الماعون الآيتان 4-5، فإنه لا يجوز الوقف على المصلين، وإلا تغيرت الدلالة، وصار الويل لمن يؤدي الصلاة، ولكن يجب أن تقرأ موصولة لتدل على أن الويل والثبور جزاء من قصر في أداء الصلاة[18] .

وإشارات علماء اللغة الأوائل لأهمية السياق ودوره في تحديد المعاني كثيرة جمة، فنجد أن ابن قتيبة -على سبيل المثال– في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، يشير إلى اختلاف الخطاب باختلاف الأحوال، والمقامات التي يمكن أن يرد فيها "فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاما...،لم يأت به من باب واحد...، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام"[19] ، ولقد نبه علماء البلاغة منذ القديم، على أن لكل مقام مقال، وعرفوا البلاغة بأنها (مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال)، وفي هذا إشارة صريحة إلى سياق الموقف، وكذا سياق الحال[20].

وأشار أيضا إلى المشترك اللفظي، فهم "يقولون: وجدت الضالة، ووجدت في الغضب، ووجدت في الحزن، ووجدت في الاستغناء"[21]، والتمييز بين هذه المعاني متوقف على السياق، وتحدث عن الدلالة السياقية في القرآن الكريم، من خلال إيراده للمعاني المتباينة التي تكتسبها الكلمة باختلاف السياقات التي ترد فيها، من ذلك "إن أصل الأمة: الصنف من الناس، والجماعة، كقوله عز وجل {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} سورة البقرة الآية : 213، أي صنف واحد...، ثم تصير الأمة: الحين، كقوله تعالى {وَادَّكَرَ بَعدَ أُمَّة} سورة يوسف الآية : 45، ثم تصير الأمة الإمام الرباني، كقوله تعالى {إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً} سورة النحل الآية : 120 ، أي إماما يقتدي به الناس...، والأمة: الدين قال تعالى {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} سورة الزخرف الآية : 22 ، أي دين..." [22] ، والأمثلة التي أوردها في هذا الباب كثيرة جدا، وجميعها تبين مدى إدراكه للدلالة الأساسية، والدلالات المتأتية من السياق، وذلك من خلال تفريقه بين أصل الدلالة في اللفظ، والدلالات التي يصير إليها بحسب الاستعمال.

و أشار ابن فارس –أيضا– في (الصاحبي) إلى مسألة المشترك اللفظي، والتضاد في اللغة، فأكثر كلام العرب أن يسمى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين، وذلك نحو: رجل وفرس، ويسمى الشيئ الواحد بالاسماء المختلفة، نحو: السيف، المهند، الحسام...إلخ. ولكن من سنن العرب أيضا أن يسموا الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد، نحو: عين الماء، وعين المال، وعين السحاب...، وكذلك تسمية المتضادين بالاسم الواحد،

نحو الجون للأسود والأبيض[23] ، والإنجازات اللغوية التي تشير إلى الاشتراك اللفظي، والتضاد في اللغة، كثيرة جدا في التراث اللغوي.

والمتأمل لكتاب (الخصائص) ليقف على العديد من الملاحظات التي تدل، عل تنبه ابن جني لأهمية الجوانب السياقية، ودورها الوظيفي في تحديد المعاني، وكشف الغموض عن المقاصد، والأغراض من الكلام، وإزالة اللبس الذي قد يكتنفه، ومن ذلك إشارته إلى المشترك اللفظي الذي "حدده أهل الأصول، بأنه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"[24] ، ومعلوم أن التمييز بين المعاني المشتركة في اللفظ الواحد يكون من خلال السياق الذي يرد فيه اللفظ، فمن الاسماء التي وقعت مشتركة "(الصدى)، فإنه ما يعارض الصوت، وهو بدن الميت، وهو طائر يخرج فيما يدَّعون من رأس القتيل إذا لم يأخذ بثأره...ويبين ابن جني أن اللبس الحاصل نتيجة اشتراك الألفاظ في الدلالة على أكثر من معنى، "يسقطه تأمله"[25]، وذلك بالنظر إلى القرائن المختلفة التي ترد في السياق اللغوي الذي ورد فيه اللفظ المشترك، ومن ثمة يحدد المعنى الذي يقصده المتكلم من اللفظ.

ويكاد يجمع أهل اللغة على ان محاولة عبد القاهر الجرجاني تفسير العلاقات السياقية في الخطاب، من أعظم الإنجازات اللغوية في هذا الباب، وذلك بإشارته للقرائن السياقية، التي تساعد على تحليل المعاني النحوية في الكلام[26]، فقد تجاوز عبد القاهر بدراسته للتراكيب حدود ذكر الخطأ والصواب، بل إنه تعدى ذلك إلى بيان حسن الجودة، وتحليل الرداءة في الخطاب، وسعى إلى الربط بين النحو والمعنى داخل السياق الكلامي، "ومن ذلك لا تبرز أهمية اللفظة عنده إلا عندما توظف في سياق كلامي، وأن قيمتها ليست ذاتية بل تفهم مجتمعة مع كلمات أخرى"[27]، فلقد أكد عبد القاهر أن "تركيب الكلمات هو الذي يعطي كل جزئية أهميتها في السياق.

ولقد أدرك الجرجاني دور سياقات التقديم والتأخير في توجيه الكلام إلى وجهة دلالية خاصة، وذلك بالنظر "إلى عنصرين قائمين في الصياغة هما: الثابت والمتغير، يتمثل الثابت في تواجد أطراف الإسناد وما يتصل بها من متعلقات، أما المتغير فيتمثل في

تحريك بعض هذه الأطراف من أماكنها الأصلية التي اكتسبتها من نظام اللغة إلى أماكن جديدة ليست لها في الأصل.

وسياقات التقديم والتأخير لها اعتبارات ترتبط فيها بالمتكلم، واعتبارات ترتبط فيها بالمتلقي، واعتبارات ترتبط بطبيعة الصياغة ذاتها[28]، ومن إشارات الجرجاني إلى السياق حديثه عن الحذف في الكلام فهو "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[29].

ولقد تحدث البلاغيون عن الحذف والذكر، في سياقات الكلام التي يرد فيها حذف أحد أطراف الإسناد، "وذلك من منطلق أن النظام اللغوي يقتضي في الأصل ذكر هذه الأطراف، ولكن التطبيق العملي من خلال الكلام قد يسقط أحدها اعتمادا على دلالة القرائن المقالية أو الحالية...، والأساس العام لمفهوم الحذف ينطلق من الحاجة الفنية للمعبر في استخدام هذا النسق من الأداء.

ومن أمثلته أن يكون "للفعل مفعول مقصود معلوم، إلا انه يحذف بدليل الحال عليه، كقولنا: أصغيت إليه والمقصود: أذني، وأغضيت إليه والمعنى جفني"[30]، ومن إنجازات البلاغيين التي تتجلى فيها أهمية السياق مباحثهم في المجاز والنقل، حيث "يغلب استعمال اللفظ في غير ما وضع له...، حتى ينسلخ عن معناه الأصلي. أو يكاد، ولا ينصرف الذهن عند اطلاقه إلا إلى هذا المعنى الجديد، ويطلق علماء البيان على هذه الظاهرة اسم النقل" [31]، وهذه الظاهرة لها صلة وطيدة بدلالة اللفظ، حيث تنتقل الألفاظ من الدلالات الأصلية التي تم التواضع عليها إلى دلالات طارئة ذات صبغة جمالية، فتتكاثر المدلولات على حسب موضع الكلمة في مختلف التراكيب[32]، إذ "يكثر في اللغة العربية استعمال الألفاظ والتراكيب في غير ما وضعت له لأغراض بلاغية، كتوضيح المعنى، والمبالغة في تقريره، والإبانة عليه، أو الإشارة إليه في قليل من اللفظ.

وإن لظاهرة المجاز والنقل في اللغة "أثر جليل في اتساع العربية ونموها، وقدرتها على التعبير على المعقولات المحضة، ومعنويات الأمور، فكثير من الألفاظ العربية الدالة على المعاني الكلية، والظواهر النفسية منقولة في الأصل من الأمور الحسية عن طريق

المجاز، ثم شاع استعمالها في معانيها الجديدة، حتى أصبح إطلاقها عليها من قبيل الحقيقة اللغوية"[33].

وترد ظاهرة النقل في اللغة بوجوه عديدة، فكما توصف الكلمة بالمجاز حين تنقل من معناها الأصلي، "فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها، إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها، ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسي إعراب المضاف في النحو: {وَاسْأَلِ القَرْيَةَ} سورة يوسف الآية82، والأصل واسأل أهل القرية...، ولا ينبغي أن يقال أن وجه المجاز في هذا، الحذف، فإن الحذف إذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام ما بقي بعد الحذف، لم يسم مجازا ألا ترى أنك تقول: زيد منطلق وعمر. فتحذف الخبر ثم لا توصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز، وذلك لأنه لم يؤد إلى تغيير حكم فيما بقي من الكلام"[34].

ومن أمثلة الإيجاز الناتج عن حذف جزء من الجملة، قوله تعالى {مِن أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} سورة التوبة الآية 108 ، لأن "التقدير فيه من تأسيس أول يوم، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه"[35]، ويذهب علماء اللغة إلى التفريق بين وجهين من الحذف في الكلام الذي يمتنع حمله على ظاهره، حتى يدعو إلى تقدير حذف مذكور، فقد يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، ومثال ذلك الآية التي سبق ذكرها، وهي {وَاسأَلِ القَرِيَة} سورة يوسف الآية82، "ألا ترى أنك لو رأيت (سل القرية) في غير التنزيل، لم تقطع بأن هاهنا محذوفا فالجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت و باد أهلها، فأراد أن يقول لصاحبه واعظا، ومذكرا، أو لنفسه متعظا معتبرا: سل القرية عن أهلها، وقل لها ما صنعوا...، والوجه الثاني أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره، ولزوم الحكم بحذف أو زيادة من أجل الكلام نفسه، لا من حيث غرض المتكلم به، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزأي الجملة، كالمبتدأ في نحو قوله تعالى {فَصَبرٌ جَمِيلٌ} سورة يوسف الآية : 18 والآية 83، وقوله {مَتَاعٌ قَلِيلٌ} سورة النحل الآية : 117 لابد من تقدير محذوف، ولا سبيل إلا أن يكون له معنى دون سواه كان في التنزيل أو غيره"[36]، ومن هنا ندرك أن الحذف نوعان: مجاز وغير مجاز، ولكن تقدير المحذوف في كليهما، يرجع إلى السياق الذي وردت فيه الكلمة.إن كثيرا من الكلم في

هذه اللغة حقيقة بوضعه، ومجازا بتوسعات أهل الخطابة والشعر فيه، ومثال ذلك "أنَّا إذا قلنا: شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وهذا الاسم له حقيقة لأنه وضع بإزائه...، فإذا نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارة، كان ذلك له مجازا لا حقيقة"[37].

وقد بين البلاغيون أننا نجد من الكلام ما يدل على معنيين وثلاثة، واللفظ واحد والمعاني التي تحته متعددة ومثال ذلك "قول أبي الطيب المتنبي :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

فهذا يدل على ثلاثة معان، الأول أنه يحسد من أنعم عليه، والثاني ضد الأول، والثالث أنه يحسد كل رب نعمة كائنا من كان"[38]، وهذا مظهر بلاغي يجلي دور السياق في توجيه المعاني التي يقصدها المتكلم، لأن ما جاء على هذا الباب هو أشبه ما يكون بالمشترك اللفظي، وتخصيص المعاني فيه لا يكون إلا من خلال إيرادها في سياقات مختلفة.

ويرى ابن سنان الخفاجي أن استعمال الألفاظ الغريبة نقص في الفصاحة، التي هي الظهور والبيان، "فأما استعمال الألفاظ المشتركة كالصدى، فإنه يحسن في فصيح الكلام إذا كان في اللفظ دليل عن المقصود، مثل قول أبي الطيب:

ودع كل صوت دون صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

فإن الصدى هاهنا لا يشكل بالصدى الذي هو العطش، ويسبق ذلك إلى فهم أحد من السامعين، وليس ذلك إلا لوجود قرينة في الكلام تخصص معنى (الصدى) في هذا البيت وهي كلمة (صوت). وينبه ابن سنان إلى أن الكلام الذي وضع لغزا، ليس من هذا الباب، ولا يعتبر من هذا القبيل، فالموضوع "على وجه الإلغاز، قد قصد قائله إغماض المعنى، وإخفائه، وجعل ذلك فنا من الفنون التي يستخرج بها أفهام الناس، ويمتحن أذهانهم، فلما كان وضعه على خلاف وضع الكلام في الأصل، كان القول فيه مخالفا لقولنا في فصيح الكلام، حتى صار يحسن فيه ما كان ظاهره يدل على التناقض، أو ما جرى مجرى ذلك، كما قال بعضهم في الشمع:

تحيا إذا ما رؤوسها قطعت وهن في الليل أنجم زهر.

ومن ذلك أيضا، "قول أبي العلاء:

إذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تكرى وإن كذب الخال.

لأنه يريد بالجد الحظ، وبالعم الجماعة من الناس، وبالخال المخيلة. وقد ألغز بذلك عن العم، والجد، والخال، من النسب. فهذا وأمثاله ليس من الفصاحة بشيء. وإنما هو مذهب مفرد وطريقة أخرى.

ومن القضايا البلاغية المرتبطة بالسياق مسألة الإيجاز والاختصار في الكلام، حيث يمكن أن يُعبر بالألفاظ على إيجازها عن المعنى الكثير، ولكن يشترط وجود ما يدل على المراد في الكلام. لئلا تذهب النفس فيه كل مذهب، ومن أمثلة العبارات الموجزة التي حذفت فيها الأجوبة -لدلالة الكلام عليها- قوله تعالى: {وَلَو أَنَّ قُرآناً سُيِّرَت بِهِ الجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ الأَرْضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى} سورة الرعد الآية : 31. فكأنه يريد: لكان هذا القرآن. لكنه لم يقل ذلك، ومثله قوله تعالى {وَسِيقَ الذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِّحَت أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيكُم طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين} سورة الزمر الآية : 73 فكأنه يريد: لما كان هذا كله حصلوا على النعيم الذي لا يشوبه كدر، أو غير ذلك من الألفاظ، ولكنه لم يقله لدلالة السياق عليه.

ولقد "كان أبو الحسن علي بن عيسى الرماني يسمى هذا الجنس، وهو إسقاط كلمة لدلالة فحوى الكلام عليها: بالحذف، ويسمى بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف: القصر، ويجعل الإيجاز على ضربين القصر والحذف[39].

وتحدث ابن الأثير -أيضا- عن الإيجاز، وعرفه بأنه "دلالة اللفظ عن المعنى، من غير أن يزيد عليه،. وهو ينقسم إلى قسمين، أحدهما الإيجاز بالحذف، وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه والقسم الآخر ما لا يحذف منه شيء وهو ضربان: أحدهما ما ساوى لفظه معناه، ويسمى التقدير، والآخر ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر، فالقسم الأول يمكن أن نتوصل فيه إلى معرفة المحذوف مفردا كان أو جملة لتوفر السياق على قرينة دالة عليه، ولذلك رأى ابن الأثير أن دلالة لفظه على معناه، تكون من غير زيادة عليه، بل يبين أن

"الأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف، فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه.

ومثال ما حذف من المفردات حذف الفاعل، والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل كقول العرب: أرسلت، وهم يريدون جاء المطر، ولا يذكرون السماء، وقد يحذف المفعول به، وعلى هذا جاء قوله تعالى {وَأَنَّهُ هُوَ أَضحَكَ وَأَبكَى} سورة النجم الآية : 43، أي أضحك من ضحك، وأبكى من بكى، ومن ذلك حذف القسم أو جوابه، ومثال حذف القسم، قولك: لأفعلن، أي: والله لأفعلن، أما حذف الجواب، ففي نحو قوله تعالى {ق وَالقُرْآنِ المَجِيدِ} سورة ق الآية : 01 فإن معناه: ق والقرآن المجيد لتبعثن[40] ، وحذف الجواب في مثل هذا الموضع "لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام"[41]، لأن ذلك أعظم في النفوس وأكثر إثارة للرهبة والإجلال.

ومثال ما حذف فيه من الجمل المفيدة ودل سياق الكلام عليها قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْباً فَمَا حَصَدتمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَاكُلُونَ ثُمَّ يَاتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَاكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ، ثُمَّ يَاتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعصِرُونَ وَقَالَ المَلِكُ ايتُونِي بِه} سورة يوسف الآيات : 47-50، فقد "حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها: فرجع الرسول إليهم، فأخبرهم بمقالة يوسف، فعجبوا لها أو فصدقوه عليها، وقال الملك: إيتوني به، والمحذوف إذا كان كذلك دل عليه الكلام دلالة ظاهرة، لأنه إذا ثبتت حاشية الكلام، وحذف وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه . وأمثلة هذا الحذف كثيرة جدا في القرآن الكريم، ومن أمثلة حذف الجمل في الشعر ودلالة السياق عليها "قول أبي الطيب المتنبي:

لا أبغض العيس لكني وقيت بها قلبي من الهم أو جسمي من السقم

وهذا البيت فيه محذوف تقديره: لا أبغض العيس لإنضائي إياها في الأسفار، ولكني وقيت بها كذا وكذا، فالثاني دليل على حذف الأول، وهذا موضع يحتاج إلى استخراجه واستخراج أمثاله إلى فكرة وتدقيق نظر"[42] ، فمن شروط الحذف التي ركز عليها اللغويون لكي يصح التقدير، وجود دليل يشير إلى المحذوف كقولك لمن رفع سوطا

(زيدا) بإضمار اضرب، وقد صنف علماء اللغة أدلة الحذف إلى نوعين "أحدهما غير صناعي وينقسم إلى حالي ومقالي...، والثاني صناعي، وهذا يختص بمعرفته النحويون، لأنه إنما عرف من جهة الصناعة"[43].

يقول ابن يعيش "اعلم أن المبتدأ والخبر، جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعها فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلا بد منها إلا أنه قد توجد قرينة لفظية أو حالية تغني عن النطق بأحدهما. فيحذف لدلالتها عليه، ولقد جاء "حذف الجملة التي هي خبر بأسرها للدلالة عليها، نحو قوله تعالى {وَاللاَّئِي يَئِسنَ مِنَ المحِيضِ مِن نِسَائِكُم إِن ارتَبتُم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشهُرٍ وَاللاَّئِى لَم يَحِضن} سورة الطلاق الآية 04. معناه: فعدتهن ثلاثة أشهر، إلا أنه حُذف لدلالة الأول عليه"[44].

ومن المسائل البلاغية التي أثارها ابن الأثير، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياق، مسألة (الترجيح بين المعاني)، فقد يرجَّح بين معنيين أحدهما تام والآخر مقدر، أو يكون أحدهما مناسبا لمعنى تقدمه، أو تأخر عنه، والآخر غير مناسب، أو بأن ينظر في الترجيح بينهما إلى شيء خارج عن اللفظ، فمثال المعنيين المشار إليهما، أن المعنى التام هو الذي يدل عليه لفظه ولا يتعداه، وأما المقدر فهو الذي لا يدل عليه لفظه، بل يستدل عليه بقرينة أخرى، وتلك القرينة قد تكون من توابعه، وقد لا تكون، ومثال ذلك ما جاء في الأثر من أن "(سائمة الغنم زكاة)، فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان، أحدهما تام والآخر مقدر، فالتام دلالته على وجوب الزكاة في السائمة لا غير، والمقدر دلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة، إلا انه ليس مفهوم عن نفس اللفظ بل من قرينة أخرى هي كالتابعة له، وهي أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لا زكاة فيها"[45] .

ومن المسائل اللغوية التي يتجلى فيها إدراك اللغويين القدامى لأهمية السياق في تمييز المعاني مسألة (التضمين)، فالعرب "قد يشربون لفظا معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضمينا، وفائدته أن تؤدي كلمة مُؤدى كلمتين"[46] ، فإذا ضمنت فعلا معنى آخر يكون دالا على معنى الفعلين معا، ولا يوقف على ذلك إلا من خلال قرينة ترِد في الكلام، "وذلك بأن يأتي الفعل متعد بحرف ليس من عادته التعدي به، فيُحتاج إلى

تأويله، وتأويل الحرف ليصح التعدي به...، ومثاله {عَيناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله} سورة الإنسان الآية 06. ، (فيشرب) إنما يتعدى بـ (من)، فتعديته (بالباء) إما على تضمينه معنى يروي، ويلتذ، أو تضمين (الباء) معنى (من)" [47] .

ونبه علماء اللغة إلى ضرورة التفريق بين العدول والتضمين، فالأول "تغير صيغة اللفظ مع بقاء معناه الأصلي، والتضمين إشراب اللفظ معنى زائدا على أصل معناه من غير تغييره عن صيغته...، فالتغيير في العدول على اللفظ دون المعنى، والتضمين بالعكس"[48]، ولا يكون التمييز بين هذه المسائل إلا من خلال دراسة اللفظ داخل السياق الذي يرد فيه.

ولقد أدرك العديد من علماء اللغة دور القرائن الواردة في السياق في تحديد المعاني النحوية إذا لم يظهر الإعراب، ومثال ذلك ما أورده ابن خلدون في حديثه عن اللغة العربية في عهده، التي أخذت تفقد سمة الإعراب في واقع الاستعمال اللغوي، فوصفها بأنها لم تفقد الدلالة على المقاصد والأغراض، على الرغم من فقدانها لدلالة الحركات التي تعين الفاعل من المفعول، حيث اعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصية المقاصد، ولذلك فإنه يرى أننا إذا استقرينا اللسان العربي، يمكن أن نقف على أمور وكيفيات موجودة فيه، نعتاض بها عن الحركات الإعرابية التي فقدت دلالتها على المعاني[49] .

وإذا تأملنا بعض الإنجازات المعجمية للقدماء، فإننا نقف أيضا على إدراك علماء اللغة لدور السياق في توجيه المعاني، لأن شرحهم للعديد من الألفاظ لم يكن مبينا على مقابلتها بما يشابهها ويغايرها، وإنما ينبني على استعمال اللفظة في السياق اللغوي، ويمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح في الكتب التي تصدى فيها أصحابها للتفريق بين المعاني المتقاربة، مثل كتاب (فقه اللغة) للثعالبي، وأمثاله من المصنفات[50] .

وعموما فإن ما يلاحظ على فكرة السياق في مباحث القدماء أنها لم تكن متبلورة تماما، حيث توزعت دراستها بين مباحث علم النحو، وعلوم البلاغة، كما أن السياق في الإنجازات اللغوية القديمة غالبا ما ينصب على معنى العبارة المفردة، على الرغم من ذلك فإنه يُذكر للقدماء، ويُحمد لهم تتبعهم دور السياق، وأهميته في تحديد المعاني

الدقيقة للألفاظ، وكذا إدراكهم لدور السياق في الربط بين المعاني من ناحية، وبين الأشكال التركيبية للعبارات من ناحية أخرى.

الهوامش

1- يراجع علم الدلالة: د.أحمد مختار عمر ، عالم الكتب الفاهرة ، ط4 ، 1993. ص69

2- الكتاب: سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل بيروت ، ط1 ، 1991.ح1 ص 24 يراجع المخصص: ابن سيده ، تحقيق لجنة إحياء الترتث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة بيروت ، د ط ، د ت.ج14 ص 224

3- يراجع علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق: د.فايز الداية ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، د ط ، د ت. ص 78

4- يراجع المشترك اللفظي في ضوء غريب القرآن الكريم / عبد العال سالم مكرم مطبوعات جامعة الكويت الكويت د ط 1994 ص25

5- يراجع دراسات في فقه اللغة: د.صبحي الصالح ، دار العلم للملايين بيروت ، ط11 ، 1986. ص 304

6- يراجع فقه فقه اللغة: الثعالبي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، د ط ، د ت.ص 246-245

7- دراسات في فقه اللغة د.صبحي الصالح ص 308

8- يراجع فقه اللغة: د.علي عبد الواحد وافي ، دار النهضة مصر القاهرة ، ط8 ، د ت.ص 192

9- فقه اللغة الثعالبي ص 204 ، يراجع الأضداد: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية شريف الأنصاري بيروت لبنان ، د ط ، 1987. ص 89-90

10- دراسات في فقه اللغة د.صبحي الصالح ص 312

11- يراجع فقه اللغة في الكتب العربية: د.عبده الراجحي ، دار المعرفة الاسكندرية د ط ، د ت. ص 167

12- الخصائص: ابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، د ط ، د ت.ج1 ص 246-248

13- الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي دار الفكر بيروت دط دت ج1 ص 29

14- يراجع المصدر نفسه ج2 ص 16

15- يراجع المصدر نفسه ج1 ص 142-143

16- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني ، دار القلم بيروت ، مكتبة جدة ، ط5 ، د ت. ج3 ص58. 470. 593 . 591

17- من أسرار اللغة: د.ابراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة ، ط7 ، 1974. ص 221

18- يراجع صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ح3 ص 209

19- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد سقر ، دار إحياء الكتب العربية ، د ط ، د ت.ص 10-11

20- يراجع موجز علوم العربية: د.محمد قاسم ، د. أحمد الحمصي ، جروس برس طرابلس لبنان ، ط1 ، 1994. ص 246

21- تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ص 13

22- تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ص 345 –346

23- يراجع الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها: ابن فارس ، تحقيق مصطفى الشويمي ، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر بيروت لبنان ، د ط ، 1964.ص 97-96

24- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي ، شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الجيل بيروت ، د ط ، د ت. ج1 ص 369

25- الخصائص ج3 ص110-111

26- يراجع اللغة العربية معناها ومبناها: د.تمام حسان ، دار الثقافة الدار البيضاء المغرب ، د ط ، 1986. ص 186

27- التراكيب النحوية ودلالاتها في السياقات الكلامية والأحوال التي ترتبط بها عند الامام عبد القاهر الجرجاني: رسالة ماجستير ، إعداد بلعيد صالح ، إشراف د.جعفر دك الباب ، معهد اللغة والأدب العربي ، جامعة الجزائر ، 1987. ص 185

28- البلاغة والأسلوبية: د.محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان ، ناشرون المكتبة المصرية العالمية للنشر طبع دار نوبار للطباعة القاهرة ، ط1 ، 1994. ص 321. 333.334
29- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، تقديم علي أبو زقية ، سلسلة الأنيس ، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية الجزائر ، د ط ، 1991. ص 149
30- البلاغة و الأسلوبية د. محمد عبد المطلب ص.318.313
31- فقه اللغة علي عبد الواحد وافي ص 227
32- يراجع البلاغة الأسلوبية د.محمد عبد المطلب ص 189
33- فقه اللغة على عبد الواحد وافي ص 225. 229
34- أسرار البلاغة في علم البيان: تأليف عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1 ، 1988.ص 363
35- الإنصاف في مسائل الخلاف ابن الأنباري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي القاهرة ط2 1953 ج1 ص229.
36- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ص 366-367
37- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير ، المطبعة البهية مصر ، د ط ، 1894. ص 24-25
38- المصدر نفسه ص 195
39- سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي ، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده مصر ، د ط ، 1969. ص 213 -214 . 218-217. 202-201
40- المثل السائر ابن الأثير ص 200.194195-205
41- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس د ط 1984 ج26 ص277.
42- المثل السائر ابن الأثير ص 198. 200
43- يراجع مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري ، تحقيق حنا الفاخوري ، دار الجيل بيروت ، ط2 ، 1987. ج2 ص 324 . 326
44- شرح المفصل: ابن يعيش ، عالم الكتب بيروت ، د ط ، د ت.ج1 ص92 . 94
45- المثل السائر ابن الأثير ص 19

46- مغني اللبيب ابن هشام ح2 ص 447

47- الإتقان في علوم القرآن السيوطي ج2 ص40

48- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية الإمام ابن مالك: للشيخ محمد الصبان ، المطبعة الأزهرية المصرية ، ط 1 ، 1305هـ ج3 ص 213

49- يراجع المقدمة: عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ، د ط ، 1960. ج1 ص 1073-1075.

50- يراجع فقه اللغة في الكتب العربية د.عبده الراجحي ص 164